آثار تونة الجبل

مقبرة بيتوزيريس — حفائر كلية الآداب

تونة هى الجزء الغربى من مدينة هرموپوليس ، وقد أخذت هذا الاسم من اسمها اليونانى القديم تاناييس أو تونس وأضيفت إليها لفظة الجبل ، لأنها تقع فى مكان مرتفع عن الوادى . وتشمل آثارها مقبرة بيتوزيريس التى كشفتها مصلحة الآثار ثم حفائر كلية الآداب .

أما مقبرة بيتوزيريس فهى فى الحقيقة ليست خاصة به ، وإنما هى مقبرة له ولأسرته التى نستطيع أن نتتبع تاريخها مدة خمسة أجيال ، شغل فيها رجالها منزلة كبيرة فى هرموپوليس ، والجد الأعلى لهذه الأسرة هو « جدْ جحُوتى أوْف عنخ » الذى كان يشغل وظيفة كبير كهنة تحوت . وقد أعقب هذا ابناً يسمى « نِسى شُو » ، وأعقب نسى شو ابناً يسمى بيتوزيريس ، وأعقب بيتوزيريس ابناً يسمى « جدْحِر » وأعقب جدحر ابناً يسمى « بِدِيكمْ » ، الذى يكون الجيل الخامس والأخير من هذه الأسرة ، وكان يشغل أيضاً وظيفة كبير كهنة معبد الإله تحوت .

ويرجع عهد هذه المقبرة إلى القرن الرابع قبل الميلاد ، وهى تتكون من غرفتين ، الأولى مستطيلة تزينها واجهة جميلة ذات أعمدة ، وهذه الغرفة ألحقت بالبناء الأصلى وخصصت لعبادة بيتوزيريس . أما الغرفة الثانية فهى البناء الأصلى وهى مربعة تقريباً كانت مخصصة لعبادة جد بيتوزيريس وأبيه ، ويقسمها صفان من الأعمدة إلى ثلاثة أقسام ، فى نهاية القسم الأوسط منها حفرة جنائزية مبنية بالحجارة فى جزئها الأعلى ، ثم محفورة بعد ذلك فى الصخر ؛ وهى توصل بعد نزول ثمانية أمتار إلى مكان واسع تحت الأرض به قبر بيتوزيريس وتابوت زوجته وتابوت أحد أبنائه وأمكنة كانت معدة لوضع توابيت أخرى .

ولقد أصبحت هذه المقبرة بعد موت بيتوزيريس مكاناً يسعى إليه الزائرون ومحبو التحف والآثار ، وخاصة اليونان الذين كانوا يجوبون أنحاء القطر المصرى فى هذا الوقت ؛ ولم ينس هؤلاء الزائرون أن يتركوا تذكاراً لزيارتهم بكتابة أسمائهم وآمالهم وصلواتهم على جدران المقبرة . وظلت المقبرة هكذا موضع تبجيل الناس واحترامهم طول القرنين الثالث والثانى قبل الميلاد ، ثم فقدت هذه المنزلة فى أواخر عهد البطالسة ؛ إذ منذ هذا العهد عاث الناس فيها فساداً ، فخربوا المدفن وأتلفوه واتخذوا من بعض أجزاء المقبرة أمكنة يدفن فيها عامة الشعب موتاهم . وفى العصر البيزنطى كثر عدد المدافن داخل المقبرة وخارجها ، وأخذ مستوى التراب المحيط بها فى الارتفاع تدريجياً حتى غمرها وأخفاها عن الأنظار ، فأصبحت بذلك بمنجى من استمرار تخريبها وظلت مجهولة حتى منتصف القرن التاسع عشر ، مما أدى إلى بقائها محفوظة مصونة طول هذه المدة . وحوالى سنة ١٨٦٠ عرف فلاحو القرى المجاورة لها وجودها ، ولكنهم لم يخبروا الحكومة بذلك إلا فى أواخر شهر نوفمبر سنة ١٩١٩ ، إذ أبلغ أحد أهالى الأشمونيين مصلحة الآثار أنه يعرف « معبداً » فى مكان معين بجبل دروة ؛ فكلفت المصلحة مفتشها بمديرية المنيا باستطلاع الأمر فعملت المجسات فى هذا المكان وظهرت الأطراف العليا للبناء الذى يسميه الأهالى معبـــداً ، وما هو فى الحقيقة إلا مقبرة بيتوزيريس وعائلته . ثم عهدت المصلحة إلى مسيو لوفقر الأمين المساعد بها فى ذلك الوقت ، بكشف هذا البناء وإزالة الأتربة التى كانت تحيط به وتغطيه ، فتم كشف المقبرة ووصفها وطبع نصوصها فى ثلاثة مجلدات كبيرة .

ولمقبرة بيتوزيريس أهمية خاصة لأنها أكمل أثر معروف يمثل لنا فترة الانتقال بين العصر الصائى الفارسى وبين العصر البطليموسى ؛ فهى وثيقة قيمة لدراسة الفن المصرى فى أواخر القرن الرابع قبل الميلاد ، حينما كانت المدرسة المصرية تجود بآخر ثمراتها الوطنية الصميمة : وتظهر أولى مظاهر

الفن الاجنبي اليوناني . أما تقليدها للقديم ، فيتجلى فى مناظر الطقوس الدينية المختلفة التى رسمت على الجدران الداخلية لهذه المقبرة ؛ إذ أنها تتبع الطريقة التقليدية المصرية وتشبه فى شكلها المناظر الموجودة بمقابر طيبة ، فنرى على الجدران صفوفاً طويلة من حاملى وحاملات التقدمات والقرابين ومناظر للحرف اليدوية المختلفة ومناظر العمل فى الحقول ومناظر تربية الحيوانات ؛ وهى بذلك تستعيد المناظر القديمة الموجودة على جدران مصاطب ممفيس ومقابر الدولة الوسطى وبعض مقابر الأسرة الثامنة عشرة . ولقد عولجت تلك المناظر والموضوعات بالاتقان والمهارة والمرونة التى تمتاز بها نهضة الفن فى العصر الصائى ، ولكنها زادت عليها قوة إحساسها بالحياة ؛ فنرى فيها محاولتها أن تكون مؤثرة فاتنة ، كما نرى فيها كثرة الحركة التى كانت دائماً طابع مدرسة هرموبوليس والتى تثبت تأثير الفن اليونانى فى الفن المصرى وتشكيله له . فاذا نظرنا مثلا إلى حاملات التقدمات والقرابين نرى أنهن يظهرن فى هيئات مختلفة ويبدين حركات وإشارات لطيفة ، ويمثلن أحياناً مصحوبات بأبنائهن . وإذا كنا فى مقابر طيبة كمقبرة رخمارع ، نرى فى المناظر المماثلة حركات الأمهات والأطفال متشابهة متصلبة لا حياة فيها ، ومشيتهن على وتيرة واحدة متكلفة لا تأثير لها ، فاننا فى مقبرة بيتوزيرويس نرى خلاف ذلك ؛ إذ يرسم الفنان كل شخصية مختلفة عن غيرها فى شكلها وحركاتها ، فهذه أم تمسك طفلتها من ذراعها ، وتلك أخرى تحملها على ذراعها وهى نائمة ، وثالثة تحمل طفلها وهى تحضنه ، كل ذلك فى أشكال حية ذات تأثير وفتنة . وإذا نظرنا إلى حاملى القرابين نرى أنهم يمثلون فى أشكال متباينة فى الزى والهيئة ، ونرى فيهم الأبيض والزنجى ونلمح فى وجوههم المرح والسرور .

وتأثر الفن المصرى بالفن اليونانى جاء نتيجة لقدوم اليونان إلى مصر وانتشارهم بها منذ الأسرة السادسة والعشرين . وبعد غزوة الاسكندر اتخذ

اليونان مصر وطناً ثانياً لهم ، وأصبحت لهم مدن خاصة بهم مثل مدينة بتولومايس التى تقع جنوب هرموپوليس بمائتى كيلومتر .

هذا فيما يختص بالمناظر — أما النصوص فهى مقتبسة من نصوص مقابر ممفيس وطيبة ونصوص الأهرامات وكتاب الموتى ، ويرجع بعض صيغها إلى عهد الدولتين القديمة والوسطى . وتدل نصوص مقبرة بيتوزوريس على أن كاتبها ملم بنصوص مقابر الأسرات الأولى ومقبرة «حاپى جفع» و«سخت ب إب رع» و«منتوحتب» ، كما هو ملم بالقصص المصرية مثل مخاطرات سنوحى .

وهذا الاقتباس من الأدب الدينى القديم ، وهذه الاستعادة وهذا التذكر للصيغ المصرية القديمة ليس إلا أشياء طبيعية فى مقبرة من هذا العصر ، فهى لا تدعو إلى العجب ولا تستلفت الانتباه الكثير . وإنما الذى يدعو إلى العجب حقيقة هو أننا نجد على جدران مقبرة بيتوزيريس سلسلة من النصوص الفلسفية الدينية ، مشابهة فى أفكارها وصيغها بل فى تعبيراتها لبعض أجزاء من كتب اليهود المقدسة :

وهذا التشابه فى الأفكار والعبارات بين نصوص مقبرة بيتوزيريس وبين كتب اليهود له متعة عظيمة ، لأنه يدلنا على المنزلة الكبيرة التى وصلت اليها الديانة المصرية والتى وصل اليها القسيس المصرى فى هرموپوليس فى القرن الرابع قبل الميلاد . وليس غريباً من الناحية التاريخية تأثير التفكير المصرى فى الديانة اليهودية ، لأن اليهود اتصلوا بالمصريين . ووعوا الكثير من أفكارهم وحفظوا الكثير من تعبيراتهم ، وخصوصاً أثناء سنى إقامتهم بمصر وذلك أن كثيرين منهم أقاموا بمصر واستوطنوها وكونوا لهم فيها مستعمرات خاصة ، مثل منطقة الفنتين . وهذه المستعمرات ازدهرت فى أواخر القرن السادس قبل الميلاد ، فليس من المستحيل إذاً أن تكون بعض نصوص الكتب الدينية العبرية وبعض الأمثال والحكم اليهودية . مأخوذة من

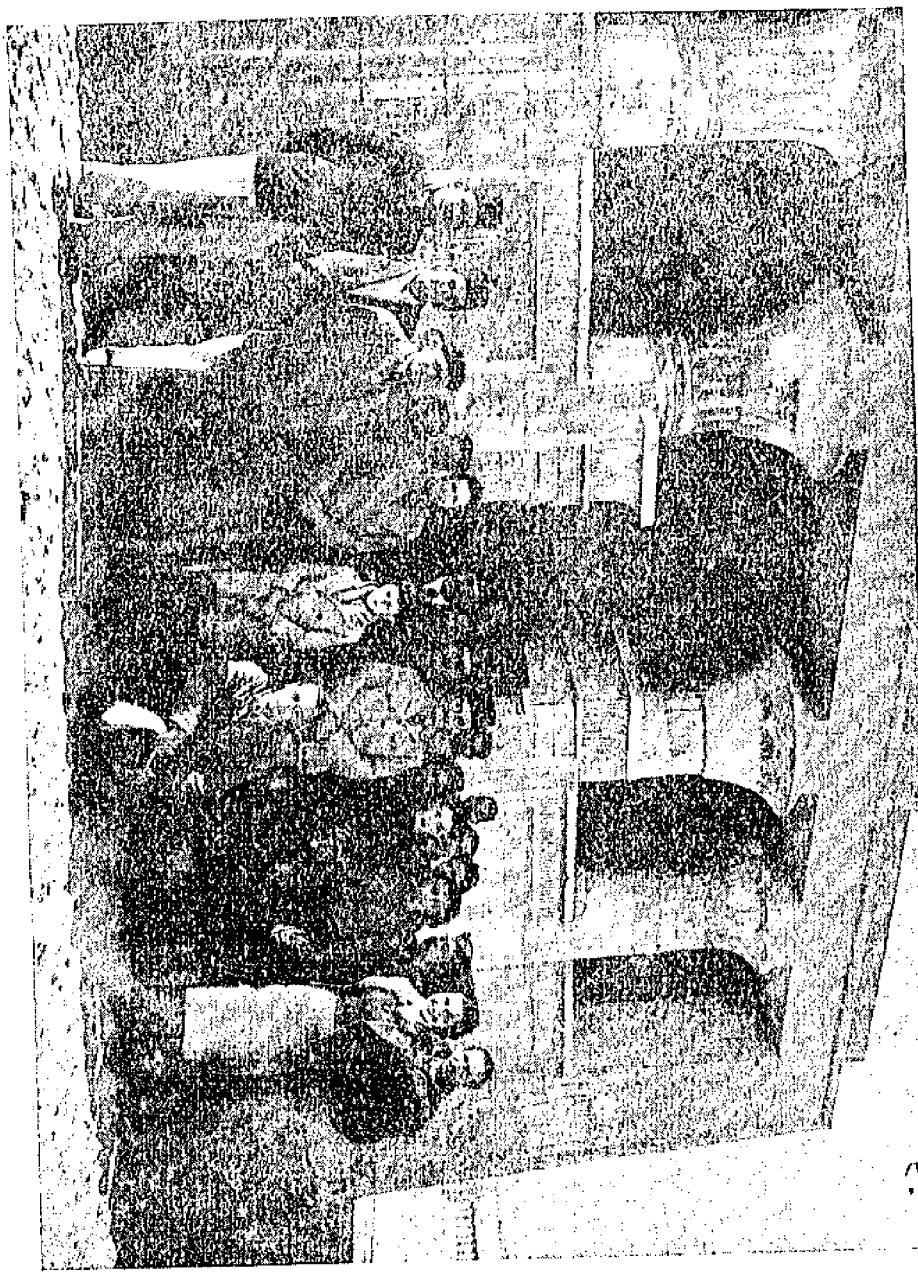

بعض أعضاء الرحلة أمام مقبرة بيتوزيريس

الأدب الدينى المصرى فى العصر الصائى الفارسى ، كما أنه ليس من المستحيل أن يتأثر أدب اليهود ببعض المميزات التعليمية وبعض التعبيرات والصيغ التى تكونت ونضجت فى المدارس الكهنوتية المصرية ، مثل مدارس هرموبوليس .

وبعد كشف مقبرة بيتوزيريس بحوالى عشر سنوات (فى فبراير سنة ١٩٣١) ، عهدت كلية الآداب بالجامعة المصرية إلى الدكتور سامى جبره بعمل حفائر فى المنطقة المحيطة بالمقبرة ، لما تبينته من أهمية هذه المنطقة التى كانت مقراً لعبادة الإله تحوت إله العلم والحكمة عند قدماء المصريين ، ولما دلت عليه هذه المقبرة من عظم شأن عائلة بيتوزيريس التى كان يشغل رجالها وظيفة كبير كهنة الإله تحوت

وقد كشفت حفائر كلية الآداب منطقة كبيرة فى الفترة الواقعة بين سنتى ١٩٣١ و١٩٣٩ ، ونتج عن ذلك العثور على مجموعة قيمة من الآثار . فمن هذه الآثار بعض مقابر صغيرة مبنية بالحجر الجيرى ذات أشكال مختلفة ؛ منها ما يشبه الهرم الكامل ومنها ما يشبه الهرم المدرج ومنها ما يشبه مقابر المسلمين الحديثة . ومحتويات هـــذه المقابر قليلة لا تتعدى بعض الأوانى الفخارية وبعض الأوجه المستعارة الملونة أو المذهبة ، التى توضع عادة على وجه المومياء . وبجوار هذه المقابر توجد بعض منازل مبنية باللبن وملونة ، يرجع تاريخها إلى الفترة الواقعة بين القرن الرابع قبل الميلاد والقرن الثانى بعد الميلاد . وعثر فى نفس المنطقة على بعض الأبنية المزدوجة التى يحتوى كل منها على معبد ومقبرة فى الوقت نفسه ، وقد نهبت معظم محتوياتها فى العصر الرومانى لأنها كانت محط أنظار الجنود المرتزقة الرومانية العاطلة ، التى كانت ترابط فى الأشمونين وتزور هذه المقابر لنهبها بين الحين والآخر ؛ ولم ينس هؤلاء أيضاً تخليد ذكرى زياراتهم بتسجيل أسمائهم على جدران هذه المقابر . وما بقى من محتويات هذه المقابر لا يتعدى بعض النقود الذهبية التى تحمل

أسماء بعض الأباطرة الرومان ثم ورقة من الذهب الخالص وكمية من التماثيل الصغيرة والجعل والتمائم . وزودتنا هذه المقابر ببعض النصوص اليونانية التى تعطينا معلومات عن مدينة هرموبوليس فى القرن الثانى بعد الميلاد ، كما زودتنا ببعض نصوص مصرية منقوشة على توابيت من الحجر الجيرى ، تدل على أن أصحاب هذه التوابيت كانوا كهنة الإله تحوت فى منطقة هرموبوليس الغربية .

ومنازل تونة الجنائزية مبنية بالطين المغطى بالجير ؛ وتزين جدران هذه المنازل صور ملونة غير متقنة من الناحية الفنية ، ولكنها ذات أهمية تاريخية لأنها تدل على تأثير القصص اليونانى القديم فى الفن المصرى فى هذه الفترة . وهذه الصور عبارة عن مناظر لحوادث من قصتى أوديب وأغاممنون .

وكشف معبد شيد فى عهد البطالسة الإله تحوت ، ووجدت به أجسام محنطة للطائر أبيس (أبو منجل من فصيلة أبى قردان) رمز هذا الإله ، كما كشفت مقبرة بديكم حفيد بيتوزيريس .

ومن الأشياء الهامة التى كشفت بحفائر تونة ، تلك البئر الكبيرة التى حفرت فى العصر الرومانى ، للحصول على الماء اللازم لأنشاء بحيرة يسبح فيها الطائر المقدس أبيس ، ولأنشاء حديقة لا تزال آثار تربة النيل المنقولة إليها وآثار نباتاتها موجودة بها حتى الآن ، وقد أشار بيتوزيريس إلى هذه الحديقة فى نصوص مقبرته . وتدل هندسة هذه البئر على مهارة المهندس الذى وضع تصميمه وأشرف على بنائه فهى عبارة عن بئر واسعة عمقها ١٥ متراً داخلها بئر أخرى عمقها ١٨ مترا ، ويرفع الماء من البئر الثانية إلى البئر الأولى ، ثم يجرى فى حوض مربع إلى مجرى مغطى ، ثم يصل إلى بناء مستطيل عمقه ١٥ متراً وجدرانه مكسوة بالمونة ، ثم يرفع الماء من هذا البناء المستطيل إلى البحيرة والحديقة بطريقة الساقية العادية . وعمق البئر كلها ٣٦ مترا وقطرها ستة أمتار وقد أجريت تجربة أمكن بها رفع الماء فى الوقت الحالى على الطريقة القديمة .

ومن الاكتشافات الهامة أيضاً تلك المدينة الكبيرة الموجودة تحت الأرض التى تبلغ مساحتها ثلاثين فداناً ؛ وهى عبارة عن دهاليز محفورة فى الأرض كانت مخصصة لدفن رمزى الإله تحوت وهما الطائر أيبيس والقرد . وهذه المدينة التى لم يسلم معظمها من عبث اللصوص فى العصر الرومانى كانت مقسمة إلى مناطق ، ولكل منطقة مدخل خاص يوصل اليها درج من الحجر الجيرى يصل عدد درجاته أحيانا إلى ١٢٠ درجة . وتؤدى الدهاليز إلى شوارع طويلة واسعة ، على جانبيها غرف مغلقة الأبواب مليئة بموميات الايبيس ، التى توجد أحيانا داخل قواديس، وبموميات القرد . وفى بعض هذه الشوارع نجد فتحات منحوتة فى الصخر ، توضع بها توابيت صغيرة ولوحات ملونة عليها نصوص هيروغليفية ، كما نجد فى شوارع أخرى معابد صغيرة مهداة من حكام الأقاليم للإله تحوت . ويظهر أن أحد الدهاليز كان محاطاً بسور من الحجر الجيرى ، وداخل هذا السور معبد متهدم تحمل بعض أنقاضه اسم ابن الأسكندر الأكبر . وخارج السور مبان من اللبن ربما كانت مساكن للكهنة المكلفين بتحنيط الطيور والحيوانات المقدسة مقابل أجر معلوم ، إذ عثر بهذه المنازل على بقايا أدوات التحنيط .

وعثر فى أسفل درج أحد الدهاليز على معبد يرجع إلى عهد بطليموس الأول به مومياء قرد مخنط زُيِّن رأسه وقدماه بحلى وتمائم من الذهب والخزف الأخضر ، وبه أيضا حجرة ملونة قام بزخرفتها بطليموس الأول تقديساً للإله تحوت رب هذه المنطقة .

وعثر فى شوارع بعض الدهاليز على قواديس كثيرة ، ظهر من فحص محتوياتها أن اثنين منها يحتويان على ملفين من ورق البردى ، أولهما طوله متر ونصف متر وعرضه نصف متر وهو مكتوب بالكتابة الديموطيقية والنصوص المدونة فيه عبارة عن مسائل قانونية تحدد العلاقة بين المالك والمستأجر . وثانيهما مكتوب بالكتابة الهيراطيقية والنصوص المدونة فيه

عبارة عن مسائل ميتولوجية وفلكية . أما باقى القواديس فتحتوى على موميات طائر الأيبيس المقدس ، وعلى تماثيل صغيرة من البرنز دقيقة الصنع تمثل الكهنة أو الأيبيس أو بعض الآلهة ، مثل ازوريس وأزيس وخنوم . ولما كانت هذه التماثيل عبارة عن نذور وضعت فى هذا المكان فقد نقشت عليها أسماء أصحابها ودعواتهم وأمانيهم. ووجدت فوق القواديس تماثيل خمسة عشر طائراً من نوع الأيبيس وهى كبيرة الحجم كاملة الأجزاء مصنوعة كلها من الخشب المذهب ماعدا المنقار والذيل والأرجل فقد صنعت من البرنز . وتقف هذه التماثيل فوق قاعدة .

هذا إحصاء مختصر لأهم ما وجد بحفائر كلية الآداب فى تونه الجبل ؛ ولا يزال الحفر قائماً فى تلك المنطقة وسينتج عن ذلك دون شك العثور على طائفة أخرى من الآثار الهامة .

ابراهيم احمد رشوان

المصادر :

Lefebvre: Le Tombeau de Petosiris, 1ère partie, Description

سامى جبره : تقارير حفائر الجامعة المصرية فى تونة الجبل من سنة ١٩٣١ إلى سنة ١٩٣٩